

أزهار فلسطين

قصة

ولاء نزار قب

العنوان: أزهار فلسطين

التصنيف: قصة

المؤلفة: ولاء نزار قب

المُدقق اللُغوي: الكاتب نفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج: فريق الدار

تصميم الغُلاف: فريق الدار

سنة النشر: 2018

الحالة: حصرياً

رقم الطبعة: 1

رقم الكتاب بالدار: 5

الموقع الصفحة الجروب

إلى وطني العظيم فلسطين..

وأطفال فلسطين الذين يحتضنون الشمس بأناملهم..

إلى أسرانا البواسل في سجون الاحتلال..

إلى نبع الحنان "أمي الغالية"..

إلى نبع العطاء "أبي الغالي"..

إلى شموع الحياة "أشقائي الأعزاء"..

إلى ريحانة العمر " أختي العزيزة"..

إلى القابع في نبضي الخالد في وقتي "زوجي الغالي"..

إلى كل من علمني حرفًا..

ولاء نزار خالد قب

(١)

لن أنسى تلك الليلة التي اعتقل فيها أخي شريف، ما دمت على قيد الحياة، على الأقل لم أنل لحظة واحدة من النوم، كنت قد أويت إلى الفراش باكرا ولم أستطع النوم، فقد كنا قد انتقلنا إلى بيت جديد ولم نأخذ على النوم به.

جاء جيب عسكري وأغلق زقاق حارتنا، نزل منه خمسة من الجنود مع أسلحتهم وكان معهم ضابط، دفعوا الناس الفضوليين إلى الوراء، واكتفى الكثير من الجيران بإطلالة صامته وخائفة من نوافذ البيوت المطلة على الزقاق.

دخل الضابط وجنوده إلى بيتنا، وبدأت عملية تفتيش غاية في الدقة في جميع البييت، كان وجه أمي ملتويا، ووالدي ينظر ساكنا، قام الضابط بمساعدة الجنود بتكبل يدي شريف وقدميه، ووضعوا الكيس الأسود على رأسه، وبدأوا بسحبه وجره إلى سيارة الجيب ، واللحظة الأخير قبيل وضع ذلك الكيس كانت الأكثر إيلاما حيث رمى شريف نظرة إلى الوراء علينا وعلى أمي تحديدا ، ثم قال: "ما تخافوا السجن للرجال"

ثم عاد وجه أمي إلى طبيعته، قد أدركت إنها أنجبت رجلا، فلا شك بذلك.

****

وفي صباح اليوم التالي وبعد تلك الأحداث، اجتمعت العائلة والجيران في بيتنا، ليستفسروا عما حدث في تلك الليلة، وما الذي دفعهم لاعتقال شريف بهذه الطريقة الوحشية.

وبعد ساعات توجه والدي إلى الصليب الأحمر، ليعلمهم باعتقال شقيقي، هذه المؤسسة تسعى للحفاظ على قدر من الإنسانية في خضم الحروب، وتقوم بمهمام الحماية الإنسانية وتقديم المساعدة لضحايا الحروب والعنف المسلح، فهي تقوم بمهمة دائمة بالعمل غير المتحيز لصالح السجناء، والجرحى والمرضى والسكان المدنيين المتضررين من النزاعات، وقاموا بإنشاء ملف خاص لمتابعة شريف في سجون الاحتلال الإسرائيلي .

****

وبعد فترة وجيزة زودتنا المؤسسة ببعض المعلومات،كمكان الاعتقال والتهمة الموجه له، أما المكان فهو سجن الجنيد في مدينة نابلس، والتهمة هي إلقاء قنابل المولوتوف على أحد المواقع العسكرية، وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات.

(٢)

يوم الأحد كانت زيارة شريف، استيقظنا أنا وأشقائي " عمر و معمر وفداء" في تمام الساعة السادسة صباحا،جهزنا أنفسنا، وذهبنا قي سيارتنا الخاصة باعتبار الجنيد قريب من مدينتي مدينة طولكرم، ولم نذهب إلى مركز الصليب الأحمر لتقلنا في الحافلات الخاصة بأهالي الأسرى، فمن يسمح له بالزيارة من أهل الأسرى يواجه عناء لا يمكن تخيله في رحلته للسجن، تتمثل بطول وقت الرحلة التي تستغرق يوما كاملا، عدا عن صعوبة الإجراءات والنقل بالباصات التابعة للصليب، ثم الشروط المجحفة للزيارة .

وصلنا باب السجن، لم أزل أعود بذاكرتي إلى الوراء إلى تلك الليلة التي اعتقل فيها شريف، جلسنا ساعات ونحن ننتظر، حتى خرج أحد الجنود ينادي على العائلات بأسماء أبنائهم الأسرى، حتى وصل إلى اسم شقيقي شريف، حزمنا الحقائب التي أتينا بها لشريف فيها طعام وملابس واقتربنا من باب السجن ، تعرضنا للذل والإهانة،فأهل السجين يعاملون كأنهم مجرمون، ويفتش بأغراضهم بطريقة غير لائقة، أما أثناء المقابلة بين السجين وأهله فلا مكان للتحدث بأشياء خاصة، لأن المواجهة تكون من خلف القضبان، وجميع الأهالي يلتقون مع السجناء في الموعد نفسه، فتنتفي الخصوصية بين السجين وأهله.

عودة للأعلى

رأيت شريف من خلف القضبان فابتسم، كعادته لا تراه إلا مبتسما مهما كانت الظروف، أدركت أن تلك الاعتقالات مع ما يصاحبها من تعذيب وإهانات لم ولن تحطم من أنفته، فهو حر، يأبى إلا أن يعيش في أعالي جبال الهمة والصمود والعنفوان.

قال : كيف حالكم، كيف الجميع، أين أمي وأبي

- **كلنا بخير لا تقلق ، وأنت؟**
- **بخير والحمد لله ، وكان يرى في قسمات وجهه آلام الفراق والحنين.**

ولا أدري كيف انتهت هذه الزيارة بهذه السرعة.

خرجنا من الغرفة، وأختلست النظر إلى أهالي الأسرى، كيف كانوا قبل دقائق يتلهفون لزيارة فلذات أكبادهم، وكيف خرجوا وعلامات الحزن والفراق بادية على وجوههم، بأي حق يسجنون؟، بأي حق؟، لعنت العالم أجمع في تلك اللحظة وغادرنا السجن وعدنا إلى مدينة طولكرم.

عندما وصلنا البيت استقبلنا والدينا والدموع في عينيهم للاطمئنان على شقيقي شريف.

ابتسمت وقلت : شريف مثل ما ربتوه ، رجال من ظهر رجال.

مسكت أمي بيدي بشدة، وقالت : هو منيح ؟ أكل ؟ بتغطى منيح ؟ شو صار معه ؟

أجبت : منيح يمه منيح ، شريف قد حاله وإلي رضع منك ما بنخاف عليه.

وأخذت تتمتم دامعة العينين : الحمد لله ، الحمد لله.

(٣)

يوم الثلاثاء كانت الزيارة الثانية لشقيقي شريف، استقليت سيارة أجرة وذهبت إلى الجنيد، عندما وصلت جسلت في ساحة السجن، حتى يأذن لي الجندي بالدخول، حينما يحين دوري كما هو مرتب لديهم في القائمة المعدة سلفا للزيارة، وأثناء إنتظاري تعرفت على بعض عائلات الأسرى وجلست معهم، كانت ساحة السجن ممتلئة بالزوار من جميع الأعمار،هنا شيخ يصل عمره لسبعين عاما، وهناك طفل صغير يمسك بيد جدته ويقول متذمرا : متى سأرى أبي ؟؟

ويبدأ الجندي بعد أسماء الزيارات بناء على أسماء الأسرى، ويذكر اسم شريف

اقتربت من غرفة التفتيش كالعادة وأخذوا بتفتيشي وتفتيش الحقائب تفتيشا دقيقا، ثم حملت الحقائب ودخلت للزيارة.

وقفنا متقابلان وتفصلنا القضبان اللعينة، وأخذت أحاول النظر لجسده لأعرف ان كانوا قد اعتدوا عليه أم لا، لأنه اعتاد على الكتمان وعدم البوح بأوجاعه حتى لو وصلت عنان السماء ، ثم سألته:

- كيف حالك ؟ طمني عنك؟
- بخير الحمد لله ، أنت كيفك، كيف أمي وأبوي والجميع)
- كلهم بخير وبسلمو عليك، جبتلك شوية أواعي وأكل، وكل ما كان الي فرصة باجي وبزورك، دير بالك على حالك، وما تخاف أمي وأبوي وأخوتي وخواتي كلهم بخير وما بدهم إلا رجعتك عالبيت سالم .

اقترب رجلا من أخي وسيم قصير القامة أسمر البشرة وملتحي، التفت إليه أخي وقال :

خليني أعرفكم، هاي أختي أزهار وهاد أخي وصديقي عبد السلام

تبادلنا التحية مبتسمين ، لكني لا أنكر أبدا أنه حرك كوامن نفسي ومشاعري، وصرفت النظر عما كنت أتكلم عنه.

صرخ أحد الجنود قائلا: انتهت الزيارة ، اخرجوا حالا.

ودعتهم وخرجت.

شعور مختلط يعتريني، وألف فكرة تدور في رأسي، بقيت لفترة طويلة في الطريق وأنا أفكر، ما مصير من يمكث هناك، في ذاك السجن اللعين؟ وإلى متى؟ وما سر ذاك الشعور ؟ أي مشاعر حرك بداخلي ؟!

كنت أنظر من شباك السيارة إلى الشوارع والصبية، وأتمنى لو عاد شريفا مثلهم وينعم بالحرية ويتنفس هواء نقيا، فللهواء القادم من الخارج طعم وإحساس مختلفان عن الهواء الخانق السائد في السجن، كان هواءًا لطيفا يداعب وجهي ويترك عليه آثار الأمل.

ما أن وطئت قدماي البيت، حتى أقبلت إلي والدتي متلهفة لتطمئن على شريف، وأخذت تستحلفني بالله أن كان بخير ولم يمسه ضر

اجبت : شريف بخير، مثل ما ربتيه؛ أسد.

أومأت برأسها وهي تمسح دموعها ثم استدارت ودلفت إلى غرفتها، ارتدت ملابس الصلاة ببطء،وجلست على الكرسي، وشرعت بالصلاة، واستمرت تناجي ربها بفك أسر فلذة كبدها.

كنت دائما أنا وأشقائي من نذهب لزيارة شريف لأن والدي قد تجاوزا عقدهما الستين وفي الآنية الأخيرة أنهكهما المرض، ولم يعدا قادرين على التنقل في المواصلات كل هذه الأمتار ، لكنهما كانا يطمئنا عليه بين الحين والآخر عن طريق الهاتف النقال، أو عن طريق ارسال أصواتهم عبر أثير صوت الأسرى.

(٤)

ما يغضبني حقا هو الزواج التقليدي الذي كان قد أصرت عليه والدتي من ابن أختها، الذي لا يناسبني بأي شكل من الأشكال ، ولعل أولى الأسباب التي تزيد من رفضي له هو أنني أريد فدائي ، وهذا الشاب لست ما كنت أريد.

وفي مساء السابع من شهر كانون الثاني ذهبت لزيارة شريف، كان يوما شتويا بامتياز، الأمطار تنهمر بغزارة والرياح شديد والطقس شديد البرودة، وأثناء الزيارة سمعنا أصوات مواجهة في الخارج ورشقات من الرصاص الذي يصم الآذان، وصراخ بشري حاد، وإذ هو عبد السلام صديق أخي ، يركل الباب بقدمه وابتلع رسالة مهربة على شكل كبسوله كانت بحوزته، ودارت مواجهة صاخبة ما بين جنود الاحتلال وأهالي الأسرى، انتهت بطرد الزوار خارج السجن وإعادة الأسرى إلى السجن.

لا أنكر أن هذا ما كنت أريد " فدائي" لا يهاب الموت إذا كان في المقابلة الأولى أعجبني مرة واحدة، بهذه اللحظة زادت المرة ألفًا.

عدت إلى المنزل وحسمت أمري بأني لا أريد الزواج من ابن خالتي وأخبرت والدتي بذلك ، فغضبت مني ووقف والدي إلى جانبها مما زاد الأمر سوءًا.

استدرت وذهبت إلى غرفتي لأكتب رسالة لشريف، بعد أن علمت من والدتي بأنه لم تبق على زيارة خالتي لإتمام زواجي سوى بضعة أيام، وعليه أن يقتنع والدي بأنني لا أريده زوجا لي.

فكان شريف هو الوحيد الذي وقف إلى جانبي وساندني لمنع هذا الزواج، مما أدى إلى المقاطعة ما بين والدتي وخالتي عدة سنوات.

(٥)

بعد مرور شهر على آخر زيارة لشقيقي، تصلنا رسالة من عبد السلام يخبرنا بها بأنه تم ترحيل شريف إلى مدينة الخليل، ويطلب منا عدم المجيء للزيارة، فهو لم يعد موجودا في سجن الجنيد.

طلب مني والدي الرد على رسالته، وهذا ما كنت أتمناه، رددت على هذه الرسالة برسالة أخرى وأرسلت معها صورة العائلة ومن ضمن تلك الصورة صورتي..

وأذكر في آخر زيارة لشريف، الطفل البريء بلال وهو ابن شقيقة عبد السلام ، كان في كل زيارة يقول لي : بدي أجوزك لخالي عبد، و في كل مره يقول هذا، يشر له عبد السلام ليصمت، عندها أيقنت أنه يبادلني الشعور نفسه .

أرسل عبد السلام لوالدي رسالة أخرى، ورددت أنا عليها وأخبرته في نهاية الرسالة بأنني أنا من اكتب هذه الرسائل نيابه عن العائلة، وبعد فترة وجيزة أرسل لي رسالة خاصة كتب فيها : " بتمنى العلاقة إلي بين أهالينا تطور"

في تلك الليلة حاولت أن أنم دون جدوى، الأفكار تتزاحم في رأسي، ماذا يقصد برسالته هذه؟ أيقصد زواجه مني ؟ أتمنى ذلك فهذا ما كنت أتمناه، فدائي أسمر ملتحي ، بقيت طيلة الليلة أتقلب على السرير دون نوم، حتى سمعت صوت المؤذن يصدح بأذان الفجر، فنهضت فتوضأت وصليت ركعتين، ثم سلمت جسدي للنوم.

(٦)

في أحد الصباحات الندية وأثناء تواجدي في الحديقة الخارجية لبيتنا، تناهى إلى سمعي صوت طرقات على الباب الخارجي للحديقة، فتحت البوابة فإذا برجل غريب لم أعرفه للوهلة الأولى، بقي صامتا ولم ينطق، حدقت به مرة أخرى، تذكرته، أنه عبد السلام، ابتسمت لكن في قلبي ...

طأطأت رأسي خجلا عندما عرفته، ولربما عرفت السبب الذي جاء به إلى هنا

قال : أزهار ، بدي أخطبك ، مين أبعث لأبوكي يطلبك أو بمون عليه.

أجبت : أبو عدنان.

أبو عدنان هو أحد أصدقاء والدي المقربين، له مكانته وكلمته عند والدي، ولا أظن أن يرد له طلب ، وحقا هذا ما حدث.

وفي عام 22-2-1987 كان لفلسطين موعد مع عرس الأسير المحرر عبد السلام واختار عروسا له تحمل أسمها نصيب " أزهار" فرقصت الأرض على وقع القلوب في ذلك اليوم، زف بمهرجان كبير بحضور زملائه الأسرى المحررين تعالت الزغاريد

وصدح الشباب بالزفة وحمل على الأكتاف حاملا الكوفية السمراء، كان أشبه بيوم وطني بامتياز، مثبتا للعالم أن الفرح يولد من عمق الجراح.

وفي ليلة زواجنا داهمت قوات الاحتلال بيتنا لاعتقال زوجي فلم تجده، لأنه لاذ بالفرار عبر أسطح المنازل المجاورة عندما شعر بدنوهم، فتشوا البيت وعبثوا في محتوياته، قلبوه رأسا على عقب ولم يتركوا شيئا مكانه، ثم تركوا بلاغا ليراجع مخابراتهم، وغادروا.

قام بمراجعتهم عندما رأى التبليغ وظن إن هذا التبليغ لامبرر له، ودارت مشاحنة بينهم فضرب بسبب ذلك ، وخرج من المعتقل بعد عدة أشهر.

(٧)

قامت قوات الاحتلال الإسرائيلي باقتحام مدينة طولكرم وأعلنت محرمة على جنود الاحتلال، وكانوا وما زالوا شباب فلسطين كما عهدناهم مرابطين لا يهابون الموت ولا تهزمهم مواجهة ولا تفجعهم فاجعة، وكان لعديد من شبابها الكثير من الإنتصارات التي لا تعد ولا تحصى، حرموا النوم لأيام طوال متتالية دفاعا عن البلدة وأهلها.

كن النساء خير داعم لهم بكل المجالات، كنا نوفر لهم الطعام في تلك الليالي العجاف، ونضمد جراحهم ونقوي من عزيمتهم للاستمرار في المقاومة حتى لو كلفنا ذلك أرواحنا.

والحقيقة أن نساء فلسطين أصلب من الصخور، فكل واحدة منهن اختارات شكلا من أشكال المقاومة لتكون خير سند للرجل وصانعة لرجال المستقبل خلال الانتفاضات التي تعرضت لها أشرف بقاع الأرض " فلسطين"، فوراء كل مقاوم أنثى ووراء كل وطن أنثى، وكما قال نابليون بونابرت: المرأة التي تهز السرير بيمينها، تهز العالم بيسارها

(٨)

وضعت أنثى ممزوجة بجمال فلسطين، تشم من عينيها رائحة بحر يافا، وقاموا شباب البلدة بزف هذه البشارة إلى زوجي، الذي دفعته الفرحة ليأتي إلي ويعانقني، وقال:

- **شو بنا نسميها؟**
- **قلت : بيسان ، مثل ما اتفقنا.**

وكان لها من أسمها نصيب ، ونعم النصيب.

قام بعض الشباب بتأمين منزل لنا في أحد المخيمات، لنبقى أنا و زوجي وابنتي، وبعد عدة أشهر شعرت بأعراض الحمل وأخبرت زوجي أثناء لقائنا في أحد البيوت في المخيم بذلك، وطلب مني أن أذهب لاجراء الفحوصات والتأكد من ذلك.

وفي صباح اليوم التالي، ذهبت إلى المستشفى في مدينة طولكرم، لإجراء الفحوصات والتأكد من الحمل، وأثناء تواجدي بالمركبة دار حديث بين الركاب وإذا بالسائق يخبرنا بأن عبد السلام ارتقى شهيدا في أحد السهول.

صعقت لحظة سماع الخبر ولم أصدقه، وأخذت ابتهل إلى الله بأن لا يريني به مكروه فهو مصدر قوتي وسعادتي، فقد وعدني على

السير معا، خرجت من المركبة مسرعة وعندما وصلت الصليب الأحمر وأخبروني بأنه لم يستشهد وإنما اصابة برجله وأخرى بصدره وقد تم اعتقاله.

حمدت الله كثيرا ، وعدت إلى المنزل بعد انقضاء ثلاثة أشهر ذهبت لزيارته في المعتقل، أنا وابنتي بيسان، نظرت إليه لأطمئن عليه، لكنه اكتفى بالنظر إلى بيسان واجهش بالبكاء، لم يكن العدو يضعفنا، فقط فلذات أكبادنا من يفعلون ذلك.

أخبرته بأنني حامل ، صحيح أنني لم أتمكن من اجراء الفحوصات لكنني أشعر بذلك.

لاحقا حكمت المحكمة على زوجي بالسجن لمدة ثمانية أشهر ونصف كوقف إداري، كونه كان على علاقة وطيدة بكافة الفصائل وشارك بعدة فعاليات خلال الانتفاضة.

وبعد انقضاء المحكومية، تم الافراج عنه، وقد حدث خطأ ما ، فقد كان هناك قائمة بأسماء الأسرى الذي تم تجديد الإقامة لهم في سجون الاحتلال وهو من ضمنهم ، فسقطت من أحد الجنود وقاموا الأسرى باخفاءها ، وهكذا عاد زوجي مطاردا من جديد.

***

حشود من الأقارب والأهل والأصدقاء في إنتظار عودة شريف، فهي طريق العودة إلى طولكرم، وإلى المنزل تحديدا.

دموع تغزو الخدين وفرحة منقطعة النظير، لكن تبقى غصة في القلب لمن بقوا هناك خلف القضبان وفي تلك الغياهب التي قضى معها شريف أياما وسنوات طوال رغم كل صعوباتها الفرحة لم تكتمل .

(٩)

وفي تلك الليلة الكئيبة وأثناء الحصار الشديد على المدينة، جاءني فرح صغير اسميته "مجد" حيث قام شبان المدينة باحضار الداية إلى بيتي، لعدم القدرة للوصول إلى المستشفى في ظل الظروف الراهنة.

قام أحد الشبان باخبار زوجي بولادتي جاء إلي مسرعا، ووصل متخفيا إلى البلدة برفقة مجموعة من الشبان لحمايته، تسلل إلى البيت ليرى ابنه ويطمئن على صحتي،وأخذ يلعن الحظ الذي منعه من حضور ولادة فلذات كبده.

وبعد مرور أسابيع قليلة استطاع زوجي بحذر شديد أن يتسلل إلى المنزل بعد أن ضاقت السبل في وجهه، وارتقى من ارتقى من رفاقه شهيدا واعتقل من اعتقل وأبعد من أبعد.

وبعد مرور ساعات داهمت قوة خاصة المنزل حاول زوجي الهرب وهو حافي القدمين إلى الأحراش القريبة من المنزل وأصيب في رجله من الأشواك والزجاج ولم يستطع الإفلات منهم وتمكنوا من القاء القبض عليه وحكم لمدة عام واحد في سجون الاحتلال.

وبعد انقضاء محكوميته خرج من المعتقل، وحملت للمرة الثالثة، ليعود ويحكم عام ونصف بتهمة إخفاء مجموعة من المطاردين في بيتنا

مضيت أيام طوال وأنا أنتظر شعاعا يضيء قوقعة العزلة التي سكنتها روحي، حتى جائني الشعاع، كان قبسا من نور ، أسميته " وليد"

وكان مولودي الثالث الذي لم يتمكن زوجي من حضور ولادتهم.

خرج زوجي من المعتقل والتحق بجامعة النجاح الوطنية كلية القانون في مدينة نابلس، كان مثالا للطالب البسيط وصاحب القضية القابض على الجرح، المتمسك بالثوابت، الساعي لنشر الخير والوعي في صفوف الطلاب، كان أيضا مثالا للخطيب الفوه الذي يحث أبناء الأرض على التمسك بها، وعدم التفريط بحبة رمل منها، وبناء عليه تمركزت عيون الاحتلال الحمراء عليه فكان يقضي حياته ما بين البيت والجامعة والمعتقل.

(١٠)

أما أنا فقد التحقت بجامعة القدس المفتوحة في مدينة طولكرم تخصص خدمة اجتماعية، ولا زلت أذكر يوم تخرجي الذي كان سيقام على أرض مدينة الجمال "طولكرم"، وكان زوجي قد وعدني بمشاركتي هذا الحفل فور الإنتهاء من دوامه الجامعي في مدينة نابلس ، وفي طريقه للحفل كان الإحتلال الإسرائيلي متواجدا على حاجز " عناب العسكري "الذي يعد محطة لقهر مواطني طولكرم وقراها واقفوا سيارته واعتقلوه، بينما كنت انتظره في قاعة حفل التخرج، وبعد مرور أكثر من نصف ساعة على تأخره، إذا باتصال من زميله يخبرني بأن الاحتلال اعتقله، اعتقدت حينها أن ذلك مجرد توقيف، ولكنه تبين فيما بعد انه اعتقال وقد استمر لمدة ثلاث أشهر، بسبب رئاسته لمجلس طلاب جامعة النجاح الوطنية.

وعلى خلفية ذلك ماتت فرحة التخرج في قلبي.

***

عاد زوجي لينير حياتنا من جديد بعد انقضاء تلك المحكومية ، وسرعان ما أنتفخ بطني مبشرا بقدوم طفل ووضعتها أنثى وهي الطفلة الأولى التي قرت عيون والدها بها وأسميتها "مجدل" فقد كانت أولى أطفاله التي شهد ميلادها، ومن شدة فرحته ظن الناس انها طفلته الأولى.

(١١)

في سجون الاحتلال الإسرائيلي، عالم تجرد سجانوه من الإنسانية، فلا يفقهوا غير الضرب والتعذيب والإذلال والشتم على الأسرى ، فلا يصف قساوة أيامه إلا من عايشه بحره الشديد في الصيف وبرده القارس في الشتاء.

اعتقلت في سجونهم اللعينة وحكم علي بالسجن لمدة ستة أشهر وذلك بتهمة دعمي النضالي لشباب بلدتي أثناء المظاهرات وحمية البلدة، ،لم أخشى على نفسي قط، لكني خشيت على طفلتي التي تمكث في أحشائي منذ ثمانية أشهر، فهؤلاء جنود الاحتلال لم يتوانوا عن ارتكاب المجازر بحق شعبنا الفلسطيني، وبالتالي لن يتنوانوا عن فعل أي شيء بي وبطفلتي .

كانت أسوأ أيام حياتي، فالاحتلال الإسرائيلي يعامل كل الأسرى الفلسطينيين بنفس الطريقة فلا يلقي بالا على أن هذا طفل صغير ، أو كبير سن أو حتى امرأة حامل ، بل وحش مجرد من الإنسانية والضمير والمشاعر.

كانوا يعذبونا بشتى الوسائل ، فاسرائيل تشتهر بالتعذيب الجسدي، كانوا قد أمروا المجندات بشبحي، قيدوا يداي وعلقوني على حائط بحيث لا تلامس قدماي الأرض، وتركوني لساعات طويلة، وبقيت هكذا في أول يوم ، وفي اليوم التالي وضعوني داخل نزانة ضيقة جدا، وهكذا يستمروا بالضغوطات النفسية بشتى الوسائل من لحظة الاعتقال وحتى الحكم وقضاء العقوبة في السجن،حيث يستمر الضغط ، لكنه يتركز أكثر في فترة التحقيق.

كان خوفي على طفلتي يزداد يوما بعد يوم، ولم يكن لي إلا الله والدعاء إلى أن وضعت طفلتي " كرمل"وسط تكبيل لليدين والأرجل والكلام البذيء، وفي تلك اللحظة كنت أشعر بازدواجية الرؤية، لكني أذكر عيناي كرمل يلتمع فيها البحر نقيا عذبا رقراقا.

ولم يقتصر إجرامهم على ذلك بل امتد لما بعد الولادة، فقد سلبوا ابنتي بعيدا عني لمدة ثلاث أيام، وما كان الي إلا الدعاء والتوسل لله أن يقيها من شر أمراض السجن، ومن شر أصحاب القلوب المتحجرة التي باتت بين أيديهم.

اتخذوا طفلتي وسيلة للضغط علي،لأجيبهم عن اسئلتهم، وأجوبتهم عن كل الأسئلة التي طرحوها والتي سببت بسجني هذه

المدة، لكن نجوت بطفلتي البريئة التي ولدت في هذا المكان القذر ، فقد أبصرت النور رغم عتمة الزنازين.

تركوا تعذيبي الجسدي وبدأوا بتعذيبي النفسي بقرة عيني " كرمل" واستمروا على هذا الحال حتى انتهت محكوميتي ، وأصبحت حرة.

عندما خرجت ورأيت زوجي بانتظاري ، صرخت :الله كبير، الله كبير، انتابتني حالة من الهستيريا فلم أعد أتحكم بنفسي، أسرعت إليه وبين يدي طفلتي، وقلت:

- **شوف هاي كرمل، رح نسميها كرمل**

أخذ يتأمل ملامحها البريئة احتضننا سويا وبكى.

(١٢)

وبعد مرور سبعة أعوام وضعت طفلي الأخير " معمر " الذي كنت قد أسميته بناء على وصية أمي ، ليحمل اسم شقيقي " معمر" الذي حكم عليه بالسجن المؤبد 28 مرة متراكمة ،لم أزل أذكر ذاك اليوم اللعين، يوم أسود مشؤوم، يوم دخل شقيقي معمر قاعة المحكمة بخطى مثقلة وسلاسل تكبل القدمين واليدين، بثياب رثة رقيقة لا تصلح لأجواء البرد الذي نعيش، استغليت كل لحظة خلال المحاكمة لأخبره بأن العائلة بكاملها تسانده وتدعمه ليصمد رفضا لاتهامات الاحتلال أو عقابها، ليرد علي شريف قائلا: " قولي لأمي متبكيش، لأنه النصر الأهم أمي متبكيش قدامهم"، ثم رفع رأسه مبتسما إبتسامة بعرض وجهه ، ورفع إشارت النصر لأشقائي بالرغم من " الكلبشات" أمام القاضي العسكري وجميع من بالمحكمة، وبات يتفادى النظر إلى عيون أمي كي لا تبكي فينهزم.

ذهبت مسرعة إلى أمي وهمست باذنها : "متبكيش يما معمر أسد، أمانة ربك لا تهديه وتهدينا"

وعندما نطقت المحكمة بالحكم البغيض الذي بموجبه سيقضي شقيقي معمر ما تبقى من حياته خلف القضبان، أطلقت والدتي زغرودة أرعبت كل السجانين من جنود الاحتلال، الذين كانوا على مدخل السجن يرقبون ما ستفعل هذه الأم المجاهدة، متبعة الزغرودة بعبارة تحدي قائلة: " السجن ما هو حقرص ولا عقارب بتقرص ومحكومية البطل بسرعة بتخلص" دب الرعب في صفوف جيش الاحتلال الاسرائيلي مما دفعهم لطردنا خارج قاعة المحكمة بهمجية منقطعة النظير.

***

كان معمر دائما يقول : " أنا لا أخاف السنوات التي قد تأتي وأنا أسير ... أنا أخاف أن تموت والدتي وأنا لا أزال أسير"

وحدث ما كان يخشاه معمر، توفت والدتي منذ عامين إثر معاناتها مع مرض الفشل الكلوي بعد أن مضى على محكوميته أربعة عشر عاما ، وأوصتني بأن أسمي طفلي القادم " معمر " وكان لها ما تريد.

***** تمت*****

بدمنا سنكتب التاريخ...

فلسطين غنية بأهلها ,, بشبابها ,,

بصلابة نساءها وشجاعة أطفالها.

"فلسطين وطن عظيم لشعب أعظم"

عن الكاتبة

الاسم: ولاء نزار خالد قب

الجنسية: فلسطينية عربية.

الضفة الغربية/ فلسطين

أعمال سابقة: حلم لاجيء (قصة قصيرة)


دار
قصص وحكايات
للنشر
الإلكتروني